7

قصص الصحابة

أعمى يحمل الراية

سلوى العنانى



أعمى يحمل الراية

(عبد الله بن أم مكتوم)

[إذا ما أخذت كريمةَ عبدي لم أجدْ له بها جزاءً إلا الجنة]

حديث قدسي

هذا صحابيٌّ نزلَ الوحيُ في أمـرِه مرتَيْـنِ .. رغـم أنـه لم يكنْ مِنَ الزُّعماءِ ولا القادةِ .. ولم يكنْ من كِبَـارِ قومِـه ولا مِنَ الأغنياءِ بل كانَ رجلاً كفيفًا .. فقيرًا ..

لم يسمعْ أحدٌ (بعبدِ اللهِ بن أمِّ مكتومٍ) قبلَ إسلامه .. فقد كان إنسانًا بسيطًا حتى إنَّ الناسَ اختلفوا على اسمه .. هـل هو (عبدُ الله) أم (عمرو) .. لكـنَّ اسـمَ (عبـد الله) غلـبَ عليه واشتهرَ به ..

هو ابنُ أبوَيْنِ بسيطَيْنِ .. لا يَعْرِفُ أحدٌ اسمَ أبيه .. وهو ليس بشاعرٍ ولا حكيمٍ ولا فارسٍ .. رجلٌ كَفِيْفٌ رقيقُ الحالِ تعرفه دروبُ مكةَ جوَّالا كثيرَ السؤالِ ، فقـد كـان يريـدُ أن يعرفَ كلَّ شيءٍ حولـه .. وتحفـظ ذاكرتُـه الصـورَ اللفظيـةَ

للأشياءِ لا ينساها أبدًا .. وهو فـوق ذلـك دؤوبـا في طلـبِ الرزقِ .. وهو رزقٌ محدودٌ بغيرِ شـك .. فـالرزقُ الواسـعُ في هذه المجتمعاتِ كانَ مِنْ نصيبِ الفرسانِ والشعراءِ والتجارِ وأبناءِ الكبراءِ والزعماءِ . قَنَعَ (عبدُ الله) بما أعطـاه الله مـن رزقٍ .. ولم يقنعْ بما وهبه من العلمِ . وهذه فضيلـةٌ عنـد أي إنسانٍ وليست رذيلةً .

وسط اهتمامِه بمعرفةِ الأخبارِ وحرصِـه علـى معرفـةِ كـلِّ جديدٍ يَدِبُّ على الأرض ، وصلت إلى سَمْعِ (عبـدِ الله بـنِ أمِّ مكتومٍ) أنباءٌ تقول أن هناك رجلاً (أمينًا) اسمه (محمدُ بـنُ عبدِ الله بنِ عبدِ المطلبِ) يجمع حوله الناسَ ويتلـو عليـهم كلامًا لم يسمعْ به أحدٌ من قَبْل .. وسَمِعَ كذلك أنَّ (محمدًا) يقولُ أن هذا وحي يتلقاه من السماءِ وأنه مُكَلَّـفٌ بتبليغـه إلى الناسِ ..

وسأل (عبدُ الله) أين يمكنه أن يجدَ (محمدًا) هـذا ليعـرفَ منه المزيدَ عَنْ هذا الوحي .. وعرف أنـه يمكـن أن يلقـاه في (دارِ الأرقمِ بنِ أبي الأرقمِ) ..

واندفع الرجلُ إلى (دارِ الأرقم) .. تحمله أشواقُه قبل قدميه .. وتقوده بَصِيْرَتُه قبل بَصَرِه .. وهناك التقى (بمحمدٍ) .. سمع منه .. وحفظت ذاكرته .. ثم آمن بما سمع مُعْلِنًا إسلامَه بين يديِّ الرسولِ صلى الله عليه وسلم .

ومنذ اللحظة التي صافحت كَفُّه كَفَّ النبيِّ أصبحَ جُنْدِيًّا في كتيبةِ المؤمنين المجاهدين والداعين إلى هذا الدينِ العظيمِ الذي لا يفرق بين أبيضَ وأسودَ ولا عربيٍّ وعجميٍّ .. وَجَلَسَ (ابن أمِّ مكتومٍ) الفقيرُ الضعيفُ الكفيفُ إلى جوارِ (أبي بكرِ بنِ أبي قُحَافةَ) وإلى جوار (مُصْعَبِ بنُ عُمَيْرٍ) وغيرهما ممن كانوا من زعماءِ العربِ ووجهائهم .. جلسَ مع (عَمَّارِ بنِ ياسر) و(بلالِ بنِ رباحٍ) .. جمعت مائدةُ الإسلامِ بين هؤلاءِ الذين كانوا أَرِقَّاءَ وبين من كانوا أسْيَادًا .. وأصبحَ الجميعُ أحرارًا إلا من عبوديتهم لربهم الواحدِ الأحدِ ..

ولازمَ (عبدُ الله بنُ أُمِّ مكتوم) الرسولَ ـ عليه الصلاةُ والسلامُ . لازمه لا يتركُه ولا يغادرُ مجلسَه .. يحفظ عنه كلَّ

كلمةٍ يقولها ويسأله عن كل ما غَمُضَ عليه أو اسْتَصْعَبَهُ ..
إلى أن جاء يومٌ جلسَ فيه النبيُّ إلى وَفْدٍ مـن زعمـاءِ قريـشٍ يحاورهم فيما أُوْحِيَ إليه به .. وكان هؤلاءِ (عتبةَ بنَ ربيعةَ) و(شيبةَ بنَ ربيعةَ) و(عمرو بن هشام) و(أميةَ بـن خلَـفٍ) و(الوليدَ بنَ المغيرةِ) و(العباسَ بنَ عبدِ المطلبِ) .

وانشغل النبيُّ في حوارِه مـع هـؤلاءِ بـاذلاً كـل جُـهْدِه في إقناعهم بدعوته ودينِه الحقِّ .. موقنًا أن إيمانَ هؤلاءِ فيه خـيرٌ كثيرٌ للإسلامِ.. فهم سادةُ قريشٍ وسيكونُ في إسلامهم نصرٌ كبيرٌ للإسلامِ والمسلمين ..

وبينما هو مشغولٌ بهذا الأمـرِ .. جـاءه (عبـدُ الله بـنُ أمِّ مكتومٍ) يقطعُ عليه الحديثَ ليسأله عـن أمرٍ عَـرَضَ لـه .. ويشيحُ النبيُّ عـن (عبـدِ الله) ويُعْـرِضُ عنـه ويَظـهرُ علـى ملامحه العبوسُ .. فهو مشغولٌ بأمرٍ مُـهِمٍّ .. ويمكـن (لعبـدِ الله) أن يؤجِّلَ سؤالَه ..

ويمضي (عبدُ الله) حزينًا مهمومًا لإعْرَاضِ النبيِّ عنه ..

لكن وحي السماءِ ينزلُ لترضية الكفيفِ الفقيرِ (عبدِ الله بن أمّ مكتوم) ..

{عَبَسَ وَتَوَلَّى • أن جَاءَهُ الأعْمَى • وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى • أوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى • أمَّا مَنِ اسْتَغْنَى • فَأنتَ لَهُ تَصَدَّى • وَمَا عَلَيْكَ ألاَّ يَزَّكَّى • وَأمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى • وَهُوَ يَخْشَى • فَأنتَ عَنْهُ تَلَهَّى} [عبس : 1 - 10] .

جاء وحي السماء يؤكد أن (عبدَ الله) جاء الرسولَ راغبًا في التَزَكّي ، طامعًا في التذكرِ ، ساعيًا إلى العلمِ ..

ويتجه النبيُّ إلى (عبدِ الله بنِ أمّ مكتومٍ) مُرَحِّبًا به يسترضيه سائلا عما له من حاجة .. ومن يومها كان النبيُّ يرحبُ بمقدمِ (ابن مكتوم) قائلا :

"مَرْحَبًا بمن عاتبني فيه ربي" ..

ثم يسأله عن حاجته .. ويحرصُ على وجودِه في مجلسِه ..

أتى جبريلُ ـ عليه السلامُ ـ يومًا بالوحي إلى النبيِّ ـ عليه السلامُ ـ وكان معه (عبدُ الله بنُ أمّ مكتومٍ) .. فسأله جبريلُ

عليه السلامُ: متى ذَهَبَ بصرُك؟؟

فأجابه (عبد الله) :

وأنا غلام ..

فرد عليه جبريل بقول الله تعالى :

[إذا ما أخذت كريمة عبدي لم أجِدْ بها جزاءً إلا الجنةَ]

(حديث قدسي)

والكريمة هى العين ـ أى بصره .

بشراكَ يا عبدَ الله .. فقد بَشَّرك جبريلُ بالجنـــةِ في أخْـرَاكَ أما في دُنياك فقد حَظِيْتَ برفقةِ سيدِ الخلقِ وحُبِّه لك وإيثاره لك .. فقد اختارك لترفعَ آذانَ الصلاةِ إذا ما غابَ (بلالُ بنُ رباحٍ) عن المدينة.. وفي ليالي رمضانَ .. كـان (بـلالٌ) يرفـع الآذانَ ليوقظ المسلمين للسحورِ .. فإذا ما ناديت (يا بـن أمِّ مكتوم) أمسك الناسُ عن الطعامِ ..

"إن بلالا ينادي بليلٍ فَكُلُوا واشربوا حتى ينادي ابـنُ أمِّ

مكتوم" حديث صحيح رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

ويملأ حُبُّ رسولِ الله قلبَ (عبدِ الله بنِ أمِّ مكتوم) حتى يضطره يومًا لقتلِ سيدةٍ يهوديةٍ كانت تعطف عليه .. فما هي حكاية هذه اليهودية ؟

كانت هذه السيدةُ تُشْفِقُ على (عبد الله) وتَتَرَفَّقُ بضعفه وتقدم له الطعامَ إذا ما وَفِدَ عليها ..

وذهب (عبدُ الله) إليها يومًا كعادته لكنها أسمعته ما يكره في حَقِّ رسولِ الله .. وحاول الرجلُ أن يقنعها بالتوقفِ عما تقول .. لكنها لم ترتدعْ .. ولم يشعرْ (عبدُ الله) بنفسِه إلا وقدْ قام فضربها حتى ماتت ..

فأي قوةٍ تملكت هذا الرجل حتى يقتلَ المرأةَ التي أساءت بألفاظِها إلى النبيِّ الكريمِ .. لا بُدَّ أنها كانت طاقةً فائقةً من الحُبِّ والولاءِ ..

وأسرع (عبدُ الله بنُ أمِّ مكتومٍ) إلى النبيِّ يقصُّ عليه ما

حدث وهو خائفٌ مرتعدٌ مما حدث .. فقد قتل المرأة ..

فماذا قال له النبيُّ عليه السلام ؟

قال النبيُّ : "أبعدها الله تعالى .. فقد أَبْطَلَتْ دَمَها " ..

لقد بدأت بالإساءةِ إلى رسولِ الله .. فأصبح دَمَهَا مُهْدَرًا .

لم يقفْ العجزُ يومًا بين (عبد الله بن أمِّ مكتومٍ) وبين أداءِ دورِه في خدمةِ الإسلامِ والمسلمين .. فكان النبيُّ يستخلفه على المدينة المنورة إذا ما خرج في غزوةٍ في سبيلِ الله .. وقد استخلفه ثلاثَ عَشْرَةَ مرة .. وفي هذا تشريفٌ أيُّ تشريفٍ ، فماذا كان (عبد الله) يصنع في أثناء غياب النبي؟!

كان يجلسُ في المسجدِ يعظُ الناسَ ويعلِّمهم أمورَ دينهم ، وكان يقوم على تحفيظِ الصبيةِ القرآنَ .. ويؤمُّ الناسَ في الصلاةِ .. فإذا ما كان يومَ الجمعةِ وقفَ إلى يسارِ مَنْبَرِ رسولِ الله يخطبُ في المسلمين ..

وأصبح اسم (عبد الله بن أم مكتوم) بين المسلمين مثالا على التقوى والسعي الدائم إلى العملِ الصالحِ والتفاني

في مرضاةِ الله ورسولِه والإخلاصِ في مساعدةِ إخوانِه من المسلمين.

فلما نزل وحي السماءِ بالآية (59) من سورة النساء ملأ الحزنُ قلبَ عبد الله واتجه بوجهه إلى السماءِ يخاطبُ الله بنفسٍ صافيةٍ ويقول: يارب .. ابتليتني .. فكيف أصنعُ يا ربِّ .. وسعت رحمتُك كلَّ شيءٍ .. واتجه بالحديث إلى الرسولِ وقال: يا رسولَ الله .. قد أنزلَ اللهُ في الجهادِ ما قد علمت وأنا رجلٌ ضريرُ البصرِ لا أستطيع الجهادَ فهل لي من رُخْصَةٍ عند الله إن قَعَدْتُ؟ فقال له الرسولُ عليه السلامُ: "ما أُمِرْتُ في شأنك بشيءٍ وما أدري هل يكون لك ولأصحابك من رخصةٍ؟".

فقال (ابن أمِّ مكتوم): اللهمَّ إني أنشدك بَصَري .. فنزل قوله تعالى:

{لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ

الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا}

[النساء : 95]

وكان الوحي قد نزل في البداية بهذه الآية دون عبارة {غير أولي الضرر} .. ثم نزل الوحي بها تكريما لهذا المسلم التقي الكريم القوام العابد المخلص ..

نزل الوحي بهذه الإضافة اعترافا بفضلِ هذا الرجلِ (الكفيفِ) واعترافا بمكانته وإنْ كانَ عاجزًا عن الجهاد في سبيلِ الله بسيفه.. وهذه لم تكن الحالة الوحيدة .. فقد كان مِنَ المسلمين الأوائل من أقْعَدَهُ العجزُ الجسدي عن الاشتراكِ في الحروبِ والغزواتِ .. لكن هذا لم يكنْ يعني أنَّهم (أقل درجة) .. فقوة الجسدِ لم ولن تكون أبدا هي معيارُ الإيمان الصادقِ ولا الإسلامِ الصحيحِ .. بل {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ} .. وكان (عبد الله بن أم مكتوم) مسلما تقيًا.

لقد هاجر (عبدُ الله بنُ أمِّ مكتـوم) مـع مَـنْ هـاجرَ مـن المسلمين الفارّيْنَ بدينهم من عذابِ أهلِ مكةَ .. هــاجرَ إلى يثربَ متوكِئًا على عصاه حاملا في قلبه الحُبَّ – كـل الحُـبِّ لله ولرسولِه – .. لكنه كان يشعر برغبةٍ شديدةٍ في نفسِه في أن يُشَارِكَ المسلمين في القتال ..

كيـف يحـدث هـذا .. هـل لأعمـى أن يقتحـم صفـوفَ المقاتلين ليبارزَ ويحارب؟!

لعلها كانت فكرةً قديمةً في قلبِ (ابنِ أمِّ مكتوم) منـذ أن هاجرَ بدينه إلى (يثربَ) .. لكنها كانت بلا شكٍّ مســتحيلةَ التنفيذِ ..

وينتقل النبيُّ الكريمُ ـ عليه الصلاةُ والسلامُ ـ إلى جوارِ ربه .. تاركا وراءه جنودًا حَمَلُوا رايةَ الإســلامِ وأقسـموا أن يرفعوها فوقَ كلِّ بــلادِ الدنيـا نَشْـرًا لديـن الله .. ويعيـشُ (عبدُ الله بنُ أم مكتومٍ) وَسَطَ هؤلاءِ الجنودِ .. يسمعُ منـهم كيفَ انتشر دينُ الإسـلامِ .. وكيـف آمـنَ بـه أهـلُ الشـامِ

والعراقِ ومصرَ .. ويسمعُ أن (سعدَ بنَ أبي وقّاصٍ) يجهّزُ جيشا بأوامر من الفاروقِ عمرَ بنِ الخطابِ ليفتح بلادَ الفرس ..

ويطلب (ابنُ أمّ مكتوم) أن يسمحوا له بمرافقة الجيشِ المتجه إلى القادسية .. ولا بد أنهم ظنوا أن به رغبةً في التواجدِ وسط الجيوشِ يؤمها للصلاةِ أو يفصل في بعض ما يقابلها من أمورٍ فقهيةٍ أو شرعيةٍ .. لابد أنهم كانوا يفكرون على هذا النحو ..

فماذا حدث في القادسية ؟

طلب (عبدُ الله بن أم مكتوم) من رفاقه المسلمين أن يعطوه (اللواء) يحمله ويرفعه ويتقدم الصفوفَ .. وتلفتَ الجميعُ في دهشةٍ.. كيف يحملُ اللواءَ أعمى .. ولماذا .. وارتفع صوتُ (ابن أمّ مكتومٍ) ..

(يا أحبابَ الله .. يا أصحابَ محمدٍ عليه السلامُ .. يا أبطالَ المعاركِ .. ادفعوا إليَّ باللواءِ فإني رجلٌ أعمى لا

أستطيع أن أفرَّ ، وأقيموني بين الصفين) .

يا لها من فكرةٍ ذكيةٍ .. فهذا الأعمى سـيمضي في طريقـه مقبـلا ولـن يُدْبِـرَ أبـدًا .. ومـن خلفـه ارتفعـت صيحـةُ الإسلامِ : الله أكبر .. وكان النصرُ يومها للمسلمين ..

رحمةُ الله عليك يا صاحبَ رسولِ الله .. يا من أضاءَ الإيمانُ بصيرَتك فحملتَ رايةَ الإسلام إلى النصرِ .



